محمد عطوي في «هجرة اليهود السوفييت» من بلاد الخزر إلى فلسطين: بذور التوسُّع... والانفجار

زيف مقولة «أرض الميعاد»

كانت هجرة اليهود إلى فلسطين الوسيلة التي مكَّنت الحركة الصهيونية من تحقيق مشروعها في إقامة كيانها، ولا يزال هذا الكيان، وفق اعتقاد أصحابه وأسيادهم، في طور الاكتمال، ولا يزال هؤلاء يعملون على أن تؤدِّي الهجرة الدور نفسه، مركِّزين، في هذه المرحلة من التاريخ، على هجرة اليهود السوفييت.

يدرس محمد عطوي قضية هجرة اليهود السوفييت بوصفها «جريمة العصر»، ويرى «أن الصهيونية ـ ببساطة ـ هي الهجرة إلى فلسطين، هكذا بدأت ولا تزال، ومع الهجرة ـ أو بعدها ـ يأتي الاقتصاد والجيش. هذا هو الثالوث الذي اعتمد عليه قيام الكيان الصهيوني.. ولكن لا اقتصاد ولا جيش من دون مهاجر..».

انطلاقاً من هذا الاقتناع، يناقش المؤلِّف الأساس الذي ترتكز عليه قضية الهجرة، فيثبت حقيقة تاريخية مفادها أن يهود اليوم ليسوا عبرانيين أو ساميين، وذلك لأن ثمانين بالمائة منهم، تقريباً، من أصل خزري، والخزر، كما هو معروف، قبائل بدوية كانت تعيش في القرن السابع، في المنطقة التي يطلق عليها اسم جنوب الاتحاد السوفييتي.

هذه الحقيقة التاريخية تؤكِّد زيف المقولة الأكثر أهمية ومركزية في قاموس

الحركة الصهيونية، وهي مقولة «أرض الميعاد» التي تعني حتمية عودة «شعب الله المختار» من شتاته في بقاع الأرض وأصقاعها. وإن يكن اليهود، وبخاصة السوفييت منهم، خزريين، فأي معنى يبقى لهجرة «شعب الله المختار» إلى «أرض الميعاد» (وفق مقولة الحركة الصهيونية)!؟

الجوانب التاريخية: لا صلة تاريخيَّة ليهود العالم بفلسطين

هو ذا السؤال الأساسي الذي يطرحه محمد عطوي، في كتابه، ويحاول الإجابة عنه بشيء من التفصيل وكثير من الجدِّية.

في القسم الأول، من الكتاب، يبحث المؤلِّف الجوانب التاريخية للقضية التي يطرحها، فيدرس خلفيات تأسيس الخزر (قبائل من الشعب التركي) أمبراطوريتهم وأسباب اعتناقهم الدِّيانة اليهودية. ويرافق هذه الأمبراطورية في أطوار نهوضها وتهوُّدها وازدهارها وانحطاطها وسقوطها وخروج أبنائها وتشتُّتهم.

يستند المؤلِّف، في إثبات ما يذهب إليه، إلى جهود باحثين عالميين، مثل آرثر كوستلر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٢) المؤرِّخ المجري الأصل الذي عاش وتوفي في بريطانيا، والمختص بتاريخ أمبراطورية الخزر القديمة. يقول كوستلر: إنَّ اليهودية صارت سنة ٧٤٠م.، دين الدولة عند الخزر، وإنَّ هؤلاء توطَّنوا بعد انهيار أمبراطوريتهم في القرن الثالث عشر للميلاد في شبه جزيرة القرم وأوكرانيا والمجر وليتوانيا وروسيا وبولندا، الأمر الذي دعا المؤرِّخين إلى القول: إنَّ «غالبية اليهود الشرقيين، ومن ثمَّ يهود العالم، قد يكونون من الخزر وليسوا من أصل سامي».

يلاحظ المؤلِّف أن محرِّري «الموسوعة اليهودية»، طبعة ١٩٧٣، لم يتمكَّنوا من إنكار هذه الحقيقة التاريخية، فكتبوا «أن اليهود القرَّائين الناطقين بالتركية... يشهدون على وجود علاقة بالخزر. ويتعزز ذلك بالتأكيد بدلائل يكشف عنها الفولكلور والأنتربولوجيا بقدر ما تكشف عنها اللغة..». وهذا ما أكده يافت بن آلي، أحد الكتاب اليهود في القرن الحادي عشر الميلادي،

عندما ضرب مثلاً «بالخزر الذين أصبحوا يهوداً من دون أن يكونوا منتمين إلى السلالة».

هذا يعني، كما يقول المؤلِّف، «أن أسلاف يهود اليوم لم يأتوا من وادي الأردن، وإنما من الفولغا، ولم ينحدروا من كنعان وإنما من القوقاز..» (ص. ١٢). يقول المؤرخ الروسي: إنَّ مملكة الخزر تحلَّلت «وتهاوت إلى أجزاء تداخلت أغلبيتها في الشعوب الأخرى المتصلة بها، أما الأقلية التي استقرت في أثل فقد فقدت قوميتها، وتحوَّلت إلى طبقة طفيلية، ذات صبغة يهودية».

وفي تقصٍّ تاريخي مدعَّم بآراء المؤرخين، يثبت الباحث أن لا صلة تاريخية ليهود العالم، اليوم، وبخاصة يهود أوروبا الشرقية، بفلسطين، وأن أي حديث عن «أرض الميعاد» التي يعود إليها «شعب الله المختار» حديث زائف، يستخدم لتحقيق أهداف الغرب الاستعماري الذي وجد في الصهيونية أداة صالحة لتمزيق الوطن العربي ووقف نموِّه، وذلك في الوقت نفسه الذي تحقَّق فيه الحركة الصهيونية أهدافها، بوصفها أداة استعمارية.

الادِّعاء المزيَّف وقيام الكيان الأداة

إن خروج «إسرائيل» للوجود لا يستند إلى الأصول المحتملة لليهود، ولا إلى الميثاق الذي يزعم هؤلاء أنه وعدهم بأرض الميعاد، ولكنه يستند من ناحية أولى، إلى القرارات الدولية التي أوكلت أمر الانتداب إلى بريطانيا، فعملت هذه على تنفيذ وعد وزير خارجيتها بلفور. وكانت الهجرة المكثَّفة أداتها الأولى في ذلك. وهنا يؤدِّي الإدِّعاء التاريخي دوره في التحريض على الهجرة. كما أنه يستند، من ناحية ثانية، إلى القرارات نفسها التي قضت بتقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية، الأمر الذي أسفر في ما بعد، عن قيام الكيان الصهيوني وتشرُّد الشعب الفلسطيني الذي لا يزال يناضل من أجل العودة والتحرير.

الحقيقة أن الأصول التاريخية المحتملة التي يثبت المؤلف زيفها في كتابه لم تقم الكيان الصهيوني، ولكنها كانت أساس الدعوة إلى الهجرة وجوهر خطاب الحركة الصهيونية إلى يهود العالم وشعوبه.. وعلى هذا الأساس من

الإدِّعاء، أقيمت الدعاية وجاء المهاجرون، وكان تقسيم فلسطين نتيجة قرن من الهجرة التي فرضتها بريطانيا/الدولة المنتدبة في ما بعد. وها هي الهجرة تأتي اليوم من الاتحاد السوفييتي بصورة مكثَّفة لتؤدي دوراً أساسياً في تدعيم هذا الكيان وتوسعه.

اليهود في روسيا

بعد أن يدحض المؤلِّف (في الفصل الأول من القسم الأول) ذلك الادعاء التاريخي، ينبري (في الفصل الثاني من القسم الأول) إلى بحث تاريخية المشكلة اليهودية في الاتحاد السوفييتي، مناقشاً بذلك ادِّعاء آخر توسلته الصهيونية سبباً من أسباب الهجرة، ألا وهو الجانب الإنساني للمشكلة.

يعود المؤلِّف، في بحث هذه المسألة، إلى العهد القيصري، فيرى أن روسيا واجهت المشكلة اليهودية، على نطاق كبير، للمرة الأولى في عهد كاترين الكبرى (١٧٢٩ ـ ١٧٩٦)، ويلاحظ أن اليهود شكلوا، منذ تلك المرحلة، طبقة تعيش على الأعمال غير الانتاجية، وتكسب الكثير وتتحكَّم بعجلة الاقتصاد بشكل بشع، الأمر الذي أثار غضب الناس ودفعهم إلى اتخاذ موقف معاد. وهذا ما جعل الكثير من اليهود ينخرطون في الحركات الثورية في أواخر العهد القيصري.

حلول مشكلة اليهود بين ثلاث قوى:

السوفييت والحركة الصهيونية والاستعمار الغربي

لمَّا انتصر البلاشفة، وألغوا القيود القائمة على أساس المعتقد والجنس، وقرَّروا حقَّ الشعوب في تقرير مصيرها، اتخذت مشكلة اليهود طابعاً آخر؛ وذلك لأنَّ حلولاً عملية وضعت، وكان للحركة الصهيونية الدور الأول في إخفاقها.

استندت تلك الحلول إلى اعتقاد مفاده أنَّ اليهود لا يؤلِّفون أمَّة، فهذه ينبغي أن يتوافر لها عنصران، وهما: أرض تتطوَّر عليها ولغة مشتركة، ولا

يتوافر في اليهود أي من هذين العنصرين، ولذا كان من الضروري دمج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها، لكن الدَّمج في الاتحاد السوفييتي واجه مشكلة معقَّدة، فاليهود كانوا قبل قيام الحكم البلشفي يمارسون التجارة والصيرفة وبعض الصناعات، ولمَّا تولَّت الحكومة البلشفية الحكم ألغت التجارة الخاصة والصناعة الفردية، ففقد معظم اليهود موارد كسبهم، وكان عليهم إزاء هذا الواقع، وبعدما ألغيت القيود المفروضة عليهم وغدوا متساوين مع المواطنين الآخرين، أن يندمجوا في المجتمع الجديد، وفي إدارات الدولة والمصانع والمزارع. بغية تحقيق هذا الهدف، أنشئت فروع يهودية عرفت باسمها المختصر «بفسكتسيا». وكانت هذه الفروع مناهضة للصهيونية...

يتحدَّث المؤلِّف عن محاولات الحكومة السوفييتية دمج اليهود، في مرحلة أولى، وتوطينهم في الأراضي الزراعية في مرحلة ثانية، وإنشاء كيان خاص لهم في مرحلة ثالثة، مركِّزاً على منظمات التوطين. ويتوقَّف إزاء تجربة التوطين في جنوب أوكرانيا والقرم، متحدثاً عن أسباب إخفاق هذه التجربة، وأهمها عدم الثقة بولاء اليهود وعداء السكان المحليين لهم والمنافسة على الأراضي في تلك المنطقة...

وقد أدى إخفاق هذه التجربة إلى اختيار منطقة مناسبة يهجَّر إليها اليهود ويوطَّنون فيها، وهي منطقة «بيروبيجيان». وبدا هذا المشروع، المقدَّر له أن ينجح، للصهاينة وأسيادهم، كأنه نسف للمخطَّط الصهيوني الرامي إلى إنشاء كيان إسرائيلي في فلسطين، فحورب من دون هوادة. يقول المؤلِّف: كان التوطين في «بيروبيجيان» حلاً طبيعياً لليهود في الاتحاد السوفييتي، لأنه يتيح لهم إنشاء وطن خاص بهم، ويخلِّصهم من اضطهاد مزعوم، ويعيدهم إلى منطقة تربطهم بها صلات تاريخية، بوصفهم خزراً أنشأوا في مرحلة من التاريخ أمبراطورية في تلك المنطقة من العالم.

يتحدث الباحث، بغية بيان ما يذهب إليه، عن أسباب اختيار منطقة «بيروبيجيان» وأهداف ذلك، واصفاً تلك المنطقة، باحثاً في تاريخها، ثم يتتبع

مراحل تنفيذ المشروع، مركزاً على الصراع الذي دار بين أنصاره وخصومه، مسلِّطاً الضوء على موقف الحركة الصهيونية منه. ويرى أن هذه الحركة ناصبته العداء منذ البداية، فقد صدرت إحدى الصحف البيدية (لغة أغلبية يهود الاتحاد السوفييتي) في ١/ ٤/ ١٩٢٨، وهي تحمل العنوان الآتي: «لماذا بيروبيجيان وليس فلسطين؟!».

وقد وصفت أجهزة الدعاية السوفييتية المرسوم الخاص بتشكيل المقاطعة اليهودية بـ «تصريح كالينين». بدا هذا التصريح كأنه يناهض «وعد بلفور». الحقيقة أنَّ معرفة الشروط التاريخية التي أنضجت هذا الوعد تظهر أنه جزء من استراتيجية الغرب الاستعماري في هذه المنطقة. وتظهر أيضاً أن الحركة الصهيونية عملت على تنفيذه بالتعاون مع الاستعمار بوصفها أداة له، وإن اقتضى النظام الدولي، آنذاك، وجود مشروعين يناهض أحدهما الآخر، فإن تغيُّر هذا النظام كوَّن وفاقاً مصلحياً يصب في خدمة مشروع الكيان ـ الأداة في فلسطين، ويحقِّق مصالح مشتركة. هذا هو جوهر القضية وليس حقوق اليهود، أو حقوق الإنسان، لأن هذه الحقوق كان من الممكن أن تتحقَّق، وعلى أفضل وجه، في منطقة زراعية خصبة لا يثير التوطُّن فيها أي مشكلة.

لكن تجربة «بيروبيجيان» أخفقت، ويذكر المؤلِّف أهم أسباب الإخفاق، ومنها السبب الأساسي الآتي: «كان الصهاينة يريدون استعمار فلسطين ويرون في مشروع بيروبيجيان نسفاً لمخطَّطهم، ولذلك شنُّوا عليه حرباً لا هوادة فيها...». وقد عدَّه وايزمان «مجرد محطَّة في الطريق إلى الوطن اليهودي في فلسطين»، مطالباً بانتظار الفرصة المناسبة، وها هي قد أتت في ظل «النظام» الدولي الجديد.

الهجرة/الجريمة

في القسم الثاني من الكتاب، يتحدَّث المؤلِّف عن الإطار العام لحركة اليهود داخل الاتحاد السوفييتي: المعطيات والظروف والملابسات، ويقدِّم لهذا القسم بحديث عن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي إلى فلسطين، بوصفها

جريمة العصر، ويبحث في أهميتها على صعيد ترسيخ الكيان الصهيوني وتوسُّعه.

تلي هذه المقدمة بحوث قصيرة عن طوائف اليهود السوفييت والأوروبيين، وعن هجراتهم خلال المرحلة: ١٩٤٨ ـ ١٩٨٩، ثم يركِّز المؤلِّف البحث على الهجرة اليهودية في ظل الوفاق الدولي، وبخاصة في عهد البيروسترويكا، ويضعها في موقعها من استراتيجية غورباتشوف في الشرق الأوسط ومفهومه لحقوق الإنسان. وفي السياق نفسه، يتم بحث موقع هجرة اليهود السوفييت في قضية فلسطين وتطورها، ويرى استناداً إلى أرقام تشير إلى أن الفلسطينيين العرب، في فلسطين المحتلة، سوف يصلون إلى نسبة ٥٠٪ مع نهاية التسعينات، «أن حلم هجرة يهودية واسعة تنضمُّ إلى اليهود في «إسرائيل» أصبح الضمان الحقيقي للحياة والمستقبل». وانطلاقاً من هذا الواقع كانت هجرة اليهود السوفييت أهم القضايا التي تم الاتفاق، في شأنها، في جو الواقع الدولي الجديد.

ويتتبَّع الباحث، في سبيل استكمال بحث هذه القضية، تطوُّر علاقات الكيان الصهيوني بالسوفييت في عهد غورباتشوف، مستنداً إلى أرقام وجداول إحصائية تعطي صورة وافية عن الهجرة في ماضيها وحاضرها واحتمالات مستقبلها.

أسئلة عن مخاطر التوطين الجديد ومضاعفاته

وفي القسم الثالث، يبحث المؤلِّف عدة مسائل، منها: أبعاد الهجرة ومضاعفاتها وأثر ذلك على اقتطاع الأراضي العربية وبناء المستوطنات الجديدة، ومنها، أيضاً: هجرة اليهود السوفييت وحقوق الإنسان. وبعد أن يعرض واقع المهاجرين المرتدين ويكشف مفارقة عدم الاهتمام بهم، يتساءل: «لماذا تهتم إسرائيل والغرب باليهودي السوفييتي عندما يكون في بلده، ثمَّ يجري تجاهله والتنكُّر له عندما يرفض الهجرة إلى إسرائيل؟».

يثير المؤلِّف قضية الأموال اللازمة لتوطين المهاجرين وإمكانات استيعاب هؤلاء في المجتمع الجديد. وهذا يطرح خطراً جديداً ودائماً قوامه التوسُّع

الإسرائيلي بسبب الحاجة إلى الأرض والمال والماء. ومن الأمثلة التي يقدمها المؤلِّف عن حاجة «إسرائيل» إلى التوسُّع من أجل توطين المهاجرين الجدد ما يأتي: تستثمر «إسرائيل» ابتداء من عام ١٩٧٨، ٩٥٪ من ثروتها المائية، فمن أين تأتي بالماء للقادمين الجدد؟ بدهي أنها ستوفِّر ذلك من طريق التوسُّع، ومن طريق المساعدات الاقتصادية والمتنوِّعة التي سوف يقدِّمها صاحب المشروع الأساسي، وهو الغرب الاستعماري..

يبدو أن مشكلات الهجرة قد بدأت فعلاً، فقد طلعت الصحف، مؤخراً، بأخبار تفيد بأنَّ رئيس لجنة الهجرة في الكنيست الإسرائيلي، مايكل كلينر، ذكر بتاريخ ١١/ ٤/ ١٩٩١ «أن نحو مليون يهودي سوفييتي يحملون تأشيرات دخول إلى إسرائيل ألغوا هجرتهم إليها، أو أرجأوها بسبب قلَّة فرص العمل هناك وأزمة السكن الحادة... وأن الأنباء السيئة تغرق روسيا، وجميعها تعبِّر عن خيبة أمل المهاجرين... وأن نحو خمسين في المائة من اليهود السوفييت في إسرائيل لا يعملون على رغم إكمال القادمين الجدد برنامج تعليم للغة العبرية يستغرق خمسة شهور» (الصحف، نقلاً عن رويتر، بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٩٩١).

الكيان الاصطناعي والغذاء الخارجي

إن مثل هذا التصريح يحمل دلالات عديدة، فصحيح أن رئيس لجنة الهجرة في الكنيست يحرِّض صاحب المشروع الأساسي على توفير ما يلزم لإتمام المشروع، ويضع الحقيقة أمامه، لكنه في الوقت نفسه، يؤكِّد هشاشة الكيان الصهيوني غير القابل للحياة من دون غذاء خارجي، وإلى أن هذا الكيان وليد اصطناعي يرتبط بمكوِّنه بوساطة حبل سرة دائم. كما أن هذا التصريح يضع العرب أمام حقيقة شديدة الأهمية، إذ إنَّه يشير إلى مرحلة مقبلة، من مراحل توسُّع الكيان الصهيوني. تتمثَّل هذه المرحلة بمحاولة هذا الكيان توفير أسباب قوته الديمغرافية، إضافة إلى مناعته العسكرية وتحفُّزه الدائم إلى التوسُّع باتجاه الأقطار العربية الأخرى. وقد تختلف طرق هذا التوسُّع، وقد تكون هذه المرة غير عسكرية، لكن المؤشرات تدل على أنه واقع، وفي وقت قد لا يكون بعيداً.

ملاحظات

الكتاب كما يبدو، يطرح قضية هجرة اليهود السوفييت من مختلف جوانبها، لكن القارئ لا بد من أن يورد عدة ملاحظات منها:

- يكرِّر المؤلف بعض المعلومات، ويوجز بحث بعض المسائل، ويعتمد أحياناً، العنوان الصحفي المثير (عنوان القسم الثاني منها، ص ٨٧). كما كان ممكناً، للمؤلِّف، أن يقسِّم قضايا الموضوع الثلاث إلى مسائل تشكل كل واحدة منها فصلاً مكتملاً، بدلاً من عرضها بوصفها مسائل مجتزأة.
- الإحصاءات، أحياناً، غير حديثة، ولعل هذا عائد إلى كون الكتاب أعد للطباعة قبل مدَّة من صدوره.
- وجود خطأ في تسلسل بعض الفقرات، يمكن للمؤلِّف أن يراجع ص ١٤١ و١٤٦، كما أرغب في أن يراجع المؤلف ص ١٥ و٢٣ و١٣٩ و١٤٠ و١٤٨ لأسباب تتعلق بسلامة الصياغة.
- إن هذه إلا ملاحظات بسيطة نذكرها من أجل أن يتفاداها المؤلِّف، في أثناء إعداد الطبعة الثانية، وذلك من أجل أن يخرج الكتاب الذي يعالج مثل هذه القضية في مستوى من الاتقان رفيع، وعلى مختلف الأصعدة.

❐❐❐